وجيه كوثراني*

الذاكرة والتاريخ في "مشوار" شفيق الحوت: من يافا إلى بيروت

تجول هذه المقالة في ذاكرة شفيق الحوت من خلال مذكراته ("بين الوطن والمنفى"، بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، ٢٠٠٧) وعبرها في تاريخ وأحداث عاشتها المنطقة، منذ ما قبل النكبة، وعايشها الحوت، فكتب عنها ليس بلغة المؤرخ ولا بلغة السياسي، "لأن الكتابة لديه ليس استحضار ذاكرة تستعيد صور الماضي في الحاضر فحسب، بل هي تعبير مباشر ـ في الزمان والمكان ـ عن الحادثة أيضاً". وهي "ذاكرة تأبى أن تفارق التاريخ، ويمتنع التاريخ من مفارقتها، لأن الحدث نفسه مستمر في التاريخ وفي الذاكرة معاً، بالعنفوان نفسه، والمرارة نفسها، والألم نفسه والوجد نفسه."

إشكالية العلاقة بين الذاكرة والتاريخ

بين الذاكرة والتاريخ مسافة زمنية قد تطول أو تقصر أو تنعدم، فإذا ما طالت المسافة في مسار لحظاتها ووقائعها وساعاتها وأيامها، ثم أشهرها وأعوامها، اختزلت الذاكرة تفصيلات الصورة وألوانها، فتكاد تصبح بقايا حلم يتلاشى ويبتعد، إنه النسيان الذي يتحدث عنه المفكر الفرنسي بول ريكور (Paul Ricœur)، فيعتبره أحد مفردات الثالوث: "الذاكرة والتاريخ والنسيان"، النسيان "الضروري" و"الصحي" من أجل أن تستقيم العلاقة الصحية بين الذاكرة والتاريخ، وبتعبير آخر كي يعيش الإنسان المرتبط بالجماعة تاريخه بوئام. إنه الضرورة الصحية من أجل أن تستقيم "الذاكرة الجماعية" وتتصالح مع التاريخ؛ هذا في حالات نهاية الصراعات بين الجماعات، "نهاية التاريخ" عندما يدخل الناس، الناس جميعاً، في سلام عادل وهانئ، سواء على طريقة هيغل، أو ماركس، أو فوكوياما...

لكن عندما تقصر المسافة الزمنية بين الذاكرة والتاريخ، بل عندما تنعدم بفعل استمرار الحدث ـ المأساة وضغط تداعياته

* أستاذ جامعي ومؤرخ عربي.

ووطأته، بل كابوسه الدائم الرابض على العقل والقلب والإدراك والمخيال، وعلى الوعي واللاوعي، فإن شريط الذاكرة ينشط في تسجيل خطوط الصورة كلها وألوانها وتفصيلاتها. عندها تتطابق الذاكرة والتاريخ واقعاً وصورة، تعبيراً وشعوراً، كلاماً وإحساساً، حاضراً وماضياً. أليست هذه حال شفيق الحوت عندما يكتب في "بين الوطن والمنفى": "حياة الواحد منا تماهت مع تجربة الوطن المريرة، فباتت سيرة الوطن هي سيرة المواطن، ويستحيل الفصل بينهما" (ص ١٠). أليست هذه حاله عندما يكتب أيضاً: "عندما تعجز 'الأرض' تحت ظروف القهر والاحتلال والاغتصاب عن أداء مهمتها كوعاء لـ 'الوطن' يحتضن آثاره وقيمه ويشهد على هويته وتاريخه، يتلقف 'المواطن' هذه المهمة ويصبح هو الوعاء الحاضن الشاهد، وتصبح 'الذاكرة' بديل 'الأرض'، وما من قوة بقادرة على قهر الذاكرة أو دحر الوجدان، والذاكرة بطبعها عدوة للقهر" (ص ٣٣).

هذه الذاكرة، على غير عادة الذاكرات التي من شيمها النسيان من أجل الحياة، ذاكرة حية لأن صاحبها تُمنع منه الحياة. تختلط الأزمنة في وعيه لأن ماضيه يعيش فيه، فيرى التفصيلات في هذا الماضي؛ يرى على غرار ما يشاهد شفيق الحوت الشارع بين بيته ومدرسته في يافا: "لو سألتني ـ يقول ـ قبل اغتصاب 'الأرض' في فلسطين، عن ذلك الشارع في يافا، الموصل بين بيتي ومدرستي [....] لوجدتني أوجز أيما إيجاز [....] لكن حاول أن تجرّبني الآن، من الذاكرة التي تتحدى القهر وعشرات من السنين، لتسمع مني عجباً" (ص ٣٤).

في "المنفى" وبعد أعوام، أي في خمسينيات بيروت القرن الماضي وستينياتها، يصف شفيق الحوت بيروت المقاهي والصحف والثقافة وأقلام مَن تقرأ، وأين تسهر؟ مع عبد الوهاب أم مع أم كلثوم... في شتورة... أم في مكان آخر، لكن "ذاكرة بيروت" الجميلة لا تنسيه فلسطين: "مرّت أعوام عديدة . يقول . والجرح ينزف، والإحساس بالمرارة قائم، والذاكرة تقاوم النسيان" (ص ٦٤–٦٥).

إذاً، هي ذاكرة تأبى أن تفارق التاريخ، ويمتنع التاريخ من مفارقتها، لأن الحدث نفسه مستمر في التاريخ وفي الذاكرة معاً، بالعنفوان نفسه، والمرارة نفسها، والألم نفسه والوجد نفسه...

وهذا هو شفيق الحوت يكتب تاريخاً وذاكرة في الوقت نفسه، يكتب مذكرات هي في رأيه سيرة إنسان يتماهى مع وطن وقضية. فهل يُمكن اعتبارها تاريخاً للقضية، أو مصدراً للتاريخ، وبالمعنى الذي يقصده المؤرخون المحترفون؟

يكتب مؤرخ فرنسي مرموق عن "الذاكرة والتاريخ" مميزاً، فيدعو إلى التمييز بين نوعين من التاريخ: تاريخ الذاكرة، ولا سيما الذاكرة الجماعية، وتاريخ المؤرخين: "تبدو الذاكرة الجماعية أسطورية، وخالطة للأزمنة، لكنها مع ذلك تعبير عن حالة المعيش (Le Vécu) للعلاقة التي لا تنتهي بين الماضي والحاضر، هذا في حين أن تاريخ المؤرخين يصحح، ويضيء الذاكرة ويساعدها على تصحيح أخطائها" (Jacques Le Goff, "*Memoire et Histoire*", Paris: Gallimard, 1988). ما يقصده المؤرخ بالتاريخ هنا هو علم التاريخ، وما يقصده بالذاكرة هو مجموعة الصور الراسخة والمتشكلة في المدرك والمخيال، في الوعي واللاوعي.

طبعاً لم يقصد شفيق الحوت أن يكتب تاريخ فلسطين، ولا قصد أن يكتب تاريخ منظمة التحرير بمنهج المؤرخ المحترف،

كما أنه لم يقصد أن يكتب مذكرات بالمعنى التقليدي للمذكرات، أي أن يتذكر في لحظة حاضره وقائع الماضي التي شارك فيها، فيكتب عنها بعد مسافة زمنية، ذلك بأن التذكّر في كتابه هو لحظات معايشة للحدث وللواقعة، بل هو في كثير من الأحيان تدخّل للتأثير في الحدث وفي الواقعة، معبّراً عنه ومنصوصاً ومكتوباً عنه في حينه.

وهذه حالة قلّما نجدها عند رجال السياسة والقادة والمسؤولين. إذ غالباً ما يلجأ هؤلاء إلى كتابة مذكراتهم في أواخر حياتهم، فيلجأوون في معظم الأحيان إلى الذاكرة يستنطقونها، أو إلى مُحاور يُنعش ذاكرتهم للقول والتعبير واستحضَار صور الماضي، بينما نقرأ في نصوص شفيق الحوت مذكرات من نوع آخر: "مشوار" يبدأ من يافا، والكتابة تبدو. في معظمها ـ منجزة داخل هذا "المشوار" وفي محطاته الأساسية، الأمر الذي يجعل من ذاكرة شفيق الحوت وعاء للتاريخ: للوقائع والأحداث والمواقف والمفاجآت وصور الصراع وتعابير القلق والالتباس.

عند هذا الأمر تزول التمايزات والمفارقات التي سبق أن نبّه إلى وجودها المؤرخ المحترف داخل ثنائية العلاقة القائمة بين الذاكرة والتاريخ. فخَلْط الأزمنة في الصور يصبح "جائزاً" من زاوية معرفية (إبستمولوجية)، واندماج الوجدان والأسطورة مع الواقعة يصبح "مفهوماً" "ومعقولاً".

وعلى قاعدة هذه المفهومية والمعقولية، كانت قراءتي "لمشوار" شفيق الحوت المكتوب، مرحلةً بعد مرحلة ومحطةً بعد محطة، وخطوةً بعد خطوة. ولعل بنية الكتابة لدى شفيق الحوت ومناسبتها واستدعاءاتها، وأحياناً إكراهاتها واضطراراتها، هي التي تخلق هذه المفهومية والمعقولية للنص، وغالباً ما يحيلك شفيق الحوت إلى مناسبته وزمنه (أين قاله ومتى، وأحياناً أين نُشر). ولا يتيسر ذلك لرجل سياسة أو لقائد كما قلنا ـ لكنه تيسّر لشفيق الحوت الصحافي والكاتب والمسؤول السياسي في الوقت نفسه، لأن الكتابة لديه ليس استحضار ذاكرة تستعيد صور الماضي في الحاضر فحسب، بل هي تعبير مباشر ـ في الزمان والمكان ـ عن الحادثة أيضاً. إنها وثيقة تاريخية ووجدانية بامتياز، لكنها الوثيقة التي تبقى تثير السؤال: أين الذاتي والموضوعي في هذه الوثيقة؟

يقول المؤرخ المحترف "التاريخ ينقّي الذاكرة، يعقلنها، يخفف من أسطوريتها، يفصل الذاتي عن الموضوعي لها"، لكن الجميل في نصوص شفيق الحوت هو توزُّع الذاتي والموضوعي فيها بشكل واضح وعادل. فأنت ترى بوضوح أين تقع وجدانية الذاكرة ووجدها وعشقها وميلها، وأين يبرز عدل المؤرخ وحياديته: تقرأ ذاتيته المتفجرة من الذاكرة، وتقرأ موضوعيته البارزة في فهمه للتاريخ وسيروته.

حالات عديدة يعرضها شفيق الحوت عبر المعايشة والمعاينة لمحطات مشواره، أقتطف منها ما يلائم مقام هذه المقالة من أسئلة الذاكرة للتاريخ والمؤرخين.

١ ـ تأسيس منظمة التحرير والموقف من الشقيري

في يوم انعقاد المجلس الوطني الفلسطيني في دورته الأولى (٢٨ أيار / مايو ١٩٦٤) في مدينة القدس، يتذكّر شفيق الحوت: "لأول مرة بعد ستة عشر عاماً من الشتات والتمزق والتيه، يلتقي الفلسطينيون بعضهم بعضاً، وهم حيارى بين نشوة اللقاء وفرحة جمع الشمل، وبين القلق من

هذه القفزة الخطرة والأمل بانتزاع الشعب لحقّه في تمثيل نفسه"، ويعلّق: "الجميع كان مسكوناً بشحنة روحية تحركنا بوعي ومن دون وعي" (ص ٩٢).

ذاكرة تسجل، لكنها أيضاً تلتقط أنفاسها لتستدرك فتتعرف على موقع الحدث في التاريخ: "كانت أياماً كلها تاريخ.. حركة دائبة، نقاش مستمر، شكوك وأوهام، تهديد وإغراء، ولجان تناقش، تسجل وتشطب وتطبع، ثم تلغي كل شيء لتبدأ من جديد.. وهكذا" (ص ٩٢).

تجريبيةُ منهج في العمل، لكنها تجريبية مفتوحة على التأريخ والمستقبل: "عندما غادرنا القدس، لم نكن ندرك بعمق أن ما قمنا به في تلك الأيام من أيار / مايو ١٩٦٤، كان بداية الرد الاستراتيجي الجاد على ما حدث لنا ولفلسطين في أيار / مايو ١٩٤٨. وأعتقد بعد مرور أكثر من خمسين عاماً على النكبة (حين كُتبت هذه الأسطر) أن أهم إنجاز وطني حققه النضال الفلسطيني حتى لحظتنا الراهنة، كان التأسيس لقيام منظمة التحرير الفلسطينية" (ص ٩٣).

ومهما يُقلْ عن التجربة ونقدها ونقد قيادتها الأولى (قيادة الشقيري التقليدية)، فإن شفيق الحوت لا يذهب مذهب الإدانة أو التحريض وفقاً لمزاج الذاكرة، وإنما يظل الحس التاريخي، والنقد التاريخي، منضبطين داخل حكم يتوخّى أن يكون "الشاهد العدل". فتعليقاً على لاءات مؤتمر الخرطوم الثلاث (١٩٦٧)، (لا صلح، لا تعايش، لا تفاوض). يعطي شفيق الحوت الحق للشقيري في اقتراح "اللاء الرابعة": "لا انفراد لأي دولة عربية بقبول أي حل لقضية فلسطين" (ص ١٠٣).

ذاكرة شفيق الحوت عن مؤتمر الخرطوم والشقيري، تطرح سؤالاً على التاريخ والمؤرخين ـ سؤالاً ظل ويظل الجواب عليه، مداراً للنقاش والجدل والاختلاف: "أعتقد أن باستطاعتنا القول، بعد مرور قرابة أربعين عاماً على هذا المؤتمر، إن الشقيري كان على حق في تحفّظه لأن هواجسه حينئذ تحوّلت إلى حقائق فيما بعد. فقد انفردت مصر بحلٍّ سنة ١٩٧٨ من خلال اتفاقية كامب ديفيد، ثم لحقت بها [....] منظمة التحرير نفسها [....] من خلال اتفاقية أوسلو سنة ١٩٩٣، ثم لحق بها الأردن سنة ١٩٩٤ من خلال اتفاقية وادي عربة" (ص ١٠٣). والسؤال هو: هل كانت اللاء الرابعة للشقيري، لو أنها مرّت في مؤتمر الخرطوم، منعت الصلح المنفرد، أي "الحقائق التي حدثت؟"

مهما يكن الجواب ـ وهو مهمة مؤرخين ـ فإن الحكم العادل على الشخصيات التاريخية يظل لدى شفيق الحوت بوصلة أخلاقية موجهة: "من واجبي الأخلاقي أن أكرر ما سبق أن قلته مراراً وفي عدة مناسبات، أنه لولا الشقيري لما وُجدت منظمة التحرير الوطنية، أهم إنجاز وطني حتى الآن. إن هذا الرجل السياسي المحنك والمناضل الصامد، وعلى الرغم من كل مواقفنا منه أو تصريحاتنا عنه خلال تعاوننا المشترك، سيبقى علماً من أعلام فلسطين البارزين، وثاني ثلاثة ممّن اعتبرهم الشعب الفلسطيني من زعمائه: من قبله الحاج أمين الحسيني، ومن بعده الأخ أبو عمّار" (ص ١٠٨).

٢ ـ عبد الناصر وهزيمة الـ ٦٧: مَن المسؤول عن التوريط والتورط؟

يحدثنا شفيق الحوت عن لقاءات عديدة مع عبد الناصر، ولعل أول لقاء لافت كان بحضور محمد حسنين هيكل، وكان قبيل حرب حزيران / يونيو ١٩٦٧. كان شفيق الحوت من الداعين إلى عدم التورط،

وعدم التوريط في حرب عربية ـ إسرائيلية قبل اكتمال الاستعداد، وكان أيضاً من المتحفظين على شعار "الكفاح المسلح" المنفرد من دون تنسيق عربي. ينقل الحوت حرفياً عن جمال عبد الناصر تعليقاً على خطابات الشقيري الحماسية التي كان البعض يشتكي منها: "'إنتو واخدين على الشقيري إنو بيتكلم كتير، وإنو بيهوّل بكلامه... معلش خلّوه يتكلم زي ما هوّ عاوز، أصله نحنا لازمنا شوية كلام بانتظار تهيئة ظروفنا'. وأذكر قوله أنه بحاجة من ثلاث إلى خمس سنوات لتوفير هذه الظروف." وكان أن حدثت الحرب بعد أشهر قليلة من هذا اللقاء وهذا الكلام، وإذ يستعيد "المتذكر" هذا اللقاء، يطرح "المؤرخ" على نفسه السؤال التاريخي بامتياز: "وأنا أستعيد هذه الذكريات، أعود مرة أُخرى إلى التساؤل عن سر وقوع عبد الناصر في شرك حرب حزيران / يونيو، وهو الذي كان قبل أقل من ثلاثة أشهر من وقوعها يحذّر من مثل هذه الحرب قبل توفير مستلزمات الانتصار فيها. وعلى الرغم ممّا سمعته منه . فيما بعد . في قمة الخرطوم، وممّا قرأته مما كتبه كثيرون عن أسرار هذه الحرب، فإني حتى الآن لم أستوعب بعد حقيقة ما حدث، وذلك لهول ما جرى ممّا لا نزال نلملم تداعياته حتى الآن" (ص ٩٩).

مَن المسؤول عن هذا التوريط؟ لماذا عدّل عبد الناصر موقفه فأبطل أعوام الاستعداد من أجندته؟ سؤال متجاذب بين الذاكرة والتاريخ، بين متذكّر معجب بكاريزما عبد الناصر، وبين "مؤرخ" يبحث عن فكٍّ لهذا "اللغز".

لكن بين "المتذكر" وبين "المؤرخ" يبقى شفيق الحوت "رجل سياسة" يبحث عن العملي في الممارسة. فبعد تأسيس "فتح"، وانطلاقة العمل الفدائي من الخارج، يصوغ شفيق الحوت مع "جبهة التحرير الفلسطينية"، المعادلة السياسية "الصعبة"، لكن "الصحيحة" تاريخياً: "المطلوب من العمل الفدائي هو شيء يفوق الصفر ويحول دون التوريط"، لكن الذي حدث "أن التوريط وقع وحصدنا الهزيمة" (ص١١٠).

وعليه، يبقى "التورط" أو التوريط، سيداً في حتمية المسار التاريخي الفلسطيني: تصفية العمل الفلسطيني المسلح في الأردن، في سنة ١٩٧٠، وتعقّبه عملية انزياح أو انزلاق في تربة هذا العمل من "'الأغوار' في الأردن إلى 'العرقوب' في لبنان" (ص١٦٥).

٣ ـ التجربة اللبنانية بين الذاكرة والتأريخ لها

لكن هذا الانزياح، لم يكن نتيجة فعل إرادة استراتيجية فلسطينية ـ عربية من أجل التحرر، يقول: "والثورة أصلاً لم تختر لبنان من دون سائر الدول العربية لأنه أكثر عروبة أو ثورية. لقد حطّت الثورة في لبنان لأنه كان حديقة من غير سياج" (ص١٦٥).

ويصدر تعبير الذاكرة في وصف الواقع، عن موقع الثورة الفلسطينية، لكن هذا الوصف من جانب واحد (حديقة من غير سياج) تعوزه أوصاف أُخرى كي يكتمل وصفاً تاريخياً. فثمة أوصاف لبنانية أُخرى لهذه "الحديقة": إنها مجتمع تعددي وديمقراطي منفتح، في صحراء استبداد عربية، كما يقول (فريد الخازن)؛ إنها مسرح لتناقضات وضع لبناني، ومكان صالح لتقوم "مقاومتان" فلسطينية ولبنانية (جماعة لبنان الاشتراكي آنذاك)؛ إنها أيضاً، ومع قدوم العامل الفلسطيني . بالنسبة إلى البعض ـ رافعة لحركة مطلبية (وطنية وإسلامية) في الصيغة اللبنانية (المسلمون والحركة الوطنية)؛ إنها حال "احتلال" أيضاً وأيضاً بالنسبة إلى المارونية السياسية

آنذاك.

لا يلبث شفيق الحوت، وهو من أصل لبناني وحامل للجنسية اللبنانية ومسؤول منظمة التحرير في بيروت، أن يكتشف أبعاد هذه اللعبة الخطرة، ومزالق اللعب على "قواعدها".. يتعامل معها كسياسي معتدل، أي "كإطفائي"، لكن أنّى للإطفائي الفرد القدرة على السيطرة على لهيب يشبّ من هنا ومن هناك، من عشرات التناقضات التي تموقعت على "الساحة اللبنانية" وتدخّل عشرات الأطراف الفاعلين من الداخل ومن الخارج.

ذكريات طويلة، جميلة وحزينة، ذاتية وعامة، فردية وجماعية، يسجلها شفيق الحوت في مسار تجربته اللبنانية خلال الحرب، وخلال اجتياح إسرائيل للبنان في سنة ١٩٨٢. صور ذكريات تتحول إلى مذكرات بالمعنى الشخصي، والوجداني، إنها أيضاً (المذكرات) "تاريخ ذاكرة"، لكن مَن قال إن التاريخ هو تاريخ الوثائق الرسمية، أو التاريخ السياسي فقط؟ الصفحات التي يكتبها شفيق الحوت عن الجانب الشخصي والذاتي خلال تخفّيه بين أحياء بيروت وبيوتها، وعن أخبار عائلته وتفتيش بيته وأجوبة زوجته الأستاذة بيان نويهض عن أسئلة الضابط الإسرائيلي في أثناء اجتياح بيروت، هي أيضاً نوع من أنواع "التاريخ الشخصي" (Histoire privée) الذي لا يقلّ أهمية عن "التاريخ الرسمي" أو "التاريخ العام"، إنه "التاريخ المعيش" (Histoire vécue)، والغني والمعبّر عن حياة الناس العاديين.

على أن هذا "التاريخ الشخصي" لا ينفك عن التاريخ العام في حياة شفيق الحوت، فيعود صاحب "الذاكرة" سريعاً إلى أسئلة المؤرخ . الباحث:

هل كان بالإمكان تفادي الاقتتال الذي حدث في لبنان؟ يتساءل ثم يجيب بمنهج المؤرخ: أكاد أجزم استحالة ذلك.

أمّا الأسباب فيلخصها كالتالي:

ـ استحالة التعايش بين منطق الثورة ومنطق الدولة بين أبناء الشعب الواحد، فكيف يمكننا تصور إمكان التعايش بين ثورة فلسطينية ودولة لبنانية؟

ـ ما للبنان من خصوصية في تاريخه وتعدديته الطائفية والمجتمعية، الأمر الذي يفرض عليه نوعاً من التوازنات الوسطية.

ـ انعدام الحد الأدنى من التضامن العربي وغياب المرجعية القومية لفرض حلولها ولا سيما بعد رحيل عبد الناصر.

هذا خطاب تاريخي بامتياز، مشبع بالمنهج التأريخي وفلسفة الحتمية التاريخية والسببية، يُشبع فضول المؤرخ المحترف الباحث عن الأسباب "الموضوعية". لكن المتذكر والمعاين للأحداث وفواجعها وآلامها لا تلبّيه ولا تشبعه تأريخيةٌ سببية باردة. لذا لا يلبث شفيق الحوت الإنسان (الفلسطيني واللبناني معاً) أن يعبّر عن ذكرياته بتعابير الذاكرة القلقة والمتألمة والحزينة، والتي لا تجد عبر منهج السببية التاريخية ما يقنع "بضرورة" قيام المأساة الكبرى، وقدريتها، ولا بالأسباب الداعية لها، فهو لا يعرف إن كانت هذه الحروب من صنع أيدينا أم كنا مجرد أدوات لها وضحايا، كما أننا لم نتفق على أسماء واحدة لها، فقد "تساوى الجميع في المسؤولية" (ص ٣٥٧)، و"ما من شيء ثابت في هذه الدنيا ولا سيما في عالم السياسة والصراعات" (ص ٣٦٢).

عديدة هي "تعابير" الذاكرة الحاملة هموم ومآسي الحروب الأهلية العربية (سواء في لبنان، أو في الأردن، أو في غيرهما من الأقطار) والتي تتخلّل سياقات الصيغة بدفق من "العاطفة"، لكن في كل مرة يترك شفيق

الحوت للذاكرة العاطفية حرية تعبيرها عن الألفة والحميمية يستدرك ليعود إلى "القضية".

في زيارته للأردن في سنة ١٩٨٤، ولأول مرة بعد الحرب التي شنّها الجيش الأردني على العمل المسلح الفلسطيني، يعبّر الحوت عن حالته الوجدانية "بتحرره من شعور الضيف"، لكنه يقطع وجده الصوفي سريعاً بقوله: "أخشى إن أنا استرسلت في حديث العاطفة هذا، أن يساء فهمي وأضيف إلى ملفّ متاعبنا مشكلة أُخرى" (ص ٣٦١).

غير أن "متاعب" شعب فلسطين لا تنتهي، و"مشاكله" لا تحصيها مذكرات شفيق الحوت.

٤ ـ مشكلة الفساد، وهل لها علاقة بالانزلاق نحو "الحفرة"؟

كثيرة هي المشكلات التي يثيرها شفيق الحوت، سواء تلك التي عبّر عنها في المناسبات التي استدعت صيغة مباشرة، أو خطاباً مباشراً لها، أو تلك التي استذكرها بعد حين، على أن جميعها يفتح باب الأسئلة التاريخية، أي يستدعي التأريخ له، لا من باب "التاريخ الحدثي" (كيف حدث)، وإنما بشكل أساسي من باب "التاريخ المفهومي" أو "تاريخ الأفكار والذهنيات"، أي "التاريخ ـ المسألة" على حد تعبير خطاب "مدرسة الحوليات الفرنسية".

لا شك في أن الصفحات التي تتحدث عن شريط الأحداث بدءاً من الوجود الفلسطيني في العرقوب والفاكهاني، إلى خطاب أبو عمار في الأمم المتحدة، إلى عملية الانتقال من حركة تحرر وطني إلى حركة استقلال وطني (وثيقة الاستقلال)، إلى كامب ديفيد، إلى أوسلو، إلى وادي عربة، إلى الاستقالة من المنظمة...هي صفحات ذات أهمية سياسية ومعرفية أيضاً، لكنها جميعها تقود القارئ المؤرخ إلى طرح سؤال لماذا؟ وليس فقط كيف؟

"أخبار" شفيق الحوت عن شخصيات قيادية، وعن أخلاقيات وذهنيات ومسلكيات تكتسب أهمية معرفية كونها "مادة" أهم، ولأنها معطيات تساعد المؤرخ، ولا سيما المؤرخ الاجتماعي ومؤرخ الأفكار والذهنيات، على فهم سبب ما حدث، وللإجابة أيضاً عن سؤال: كيف نؤرخ للفساد وآليته؟ وهل هو علة الانحراف؟

اللافت في مذكرات شفيق الحوت هو هذا الربط "الزمني" بين الأزمة المالية المفاجئة للمنظمة والتمهيد لأوسلو: شلل في المؤسسات، عجز مباغت للصندوق القومي عن الوفاء بالتزاماته المالية؛ شركات واستثمارات فلسطينية (وهمية) تنهار وتفلّس؛ لغط وأحاديث عن فضائح كبرى...

أخبار سريعة يوردها شفيق الحوت عن بعض شخصيات حملت "لقب مستشار": "... لا يركبون إلاّ الطائرات الخاصة، ولا يقيمون إلاّ بأجنحة فنادق النجوم الخمس، لقد اطلعتُ على 'فاتورة' واحد من هؤلاء لفندق في عاصمة عربية تجاوزت المئة ألف دولار عن إقامة نحو أسبوعين! ولمّا أطلعت أبو عمار عليها، قال لي إن المذكور كان في تلك الزيارة بصفة شخصية من أجل عقد صفقة نفط جانبية، ولمّا سألته هل كان في استطاعته أن يعقد صفقة من هذا النوع لولا 'اللقب' الذي يحمله، اكتفى أبو عمار بالقول: 'هم يحاولون أن يفيدوا ويستفيدوا' " (ص ٤٦٢).

أخبار كثيرة تضاف إلى أخبار يتناقلها مراقبون ومتابعون، تفيد جميعاً بأن "فساداً بنيوياً" هو السائد؛ فساد ناتج من نظام مصالح متبادلة، نظام من "الزبونية" عماده سلطة تنحو نحو التسلط، ومال يوظَّف من

أجل الاستتباع والتبعية، وآلية اشتغاله تقوم على اشتقاق فعل "استفاد وأفاد". معادلة أصبحت نصيحة ردّدها ويردّدها زعماء عرب كثر، بينهم أيضاً أحد زعماء طائفة من طوائف لبنان، أمام مجالسيه وطالبي الوظائف في حضرته.

نصيحة مارسها ويمارس مفعولها وآلياتها أيضاً أحزاب وأسر حاكمة عربية، بل أحزاب "مناضلة" و"ممانعة" و"مجاهدة"، تقوم بناها الداخلية على نظام من التوزيع والخدمات، وعلى إتاحة الفرص أمام الإثراء السريع والترقي السلطوي المحسوب. تُرى ما ستكون مآلات حركات "تحرر" و"مقاومة" و"ممانعة"، تقوم بنيتها على التزاوج بين المال والسلطة، وعلى عصمة قائد يوزّع الشهادات والكرامات كما يوزّعها "ولي" من أولياء الله؟

يصف شفيق الحوت أبو عمار بعد حادثة الطائرة التي تعرّض لها هذا الأخير:

> "ترعاه عناية إلهية خاصة، كما أنه تماهى مع فلسطين إلى شفير الخلط بين الحقيقة والخيال" (ص ٤٥٦).

يستغرب شفيق الحوت من مسلكيات "مسؤولين" لهم وجهان: وجه المهادنة والتملُّق داخل الاجتماعات، ووجه المزايدة خارج الاجتماعات. يستغرب سكوت القائد عن مسلكهم، ليكتشف أن ذلك "سستام" اشتغال للبنية قائم بذاته. يقول: "بيني وبين نفسي كنت أشعر بأننا تحولنا إلى أصفار، وأن لا دور لنا سوى ديكور لشيء يسمى قيادة" (ص ٤٥٨). يتشكى بحدة وانفعال من هذا الأمر إلى محمود درويش، فيجيبه هذا الأخير بردٍّ فيه من القساوة بقدر ما فيه من الحقيقة: "يا أبا الهادر، هذه ثورة فصّلها أبو عمار على قياسه، فإمّا أن تقبل وإمّا أن ترحل" (ص ٤٥٨)، وقرّر أبو هادر الرحيل.

رحل شفيق الحوت من دنيا المنظمة، ومن العمل السياسي المباشر، ثم رحل من الحياة الدنيا، وكان لكل رحيل طعمه وتداعياته وأسئلته. الرحيل الأول ترك لنا ذاكرة مشوار طويل من العذابات والمشاق، والأسئلة عن أحداث متفرقة. ومع الرحيل الثاني ترك سؤالاً كبيراً على التاريخ أن يجيب عنه:

كان قد جرت الموافقة على "اتفاق غزة ـ أريحا في سنة ١٩٩٣" في المجلس المركزي الفلسطيني في تونس، من طرف ١٢٠ عضواً في مقابل ثمانية أعضاء عارضوا، وكان شفيق بينهم. وفي أثناء العودة من تونس إلى بيروت يستعيد شفيق في الطائرة حالة من حالات سيكولوجيا المعرفة المفعمة بالشك والقلق، فيقول: "وأنا فوق السحاب بالطائرة، ألحّ علي سؤال أربكني، هل من المعقول أن يكون كل هؤلاء الناس في المجلس على خطأ وأنا وحدي والسبعة الذين أيدوني، على حق؟ ورحت أستجدي الذاكرة لتستحضر بعض الروايات والحكايات من التاريخ كي تنقذني من هذا الهاجس الذي استولى عليّ" (ص ٤٧٩). بعد ذلك، وهو في دوّامة هذا "الشك" وهذا الانزلاق الجماعي نحو "الحفرة"، يتراءى له قبس من "أمل"، في مقاتلي حزب الله.

لكن التاريخ، وكما هو مختلف عن الذاكرة، يبقى مختلفاً أيضاً عن الحلم، أي عن أمل الغريق بالقشة. ذلك بأن السلطة والمال عاملان مؤديان إلى التسلط؛ ففي ظل غياب الرقابة وغياب النقد، وغياب ضمائر العارفين واستبعادهم، وفي ظل قيادة تتماهى مع الحقيقة المطلقة، أي مع الله، يستمر التاريخ العربي الحديث بتكرار نفسه وتكرار ذاكرته. ففي تاريخ أجيالنا الثلاثة الأخيرة ـ على الأقل ـ ثلاثة رهانات حملتها الذاكرة الجماعية: رهان على الحركة

الناصرية؛ رهان على الثورة الفلسطينية؛ رهان على حزب الله.

وفي جميع الرهانات كانت حركة التاريخ تجري بما لا تشتهيه أحلام الذاكرة. لماذا الرهان؟ ولماذا "الإحباط"؟، سؤال ينتمي إلى الحيّز النفساني والثقافي ـ الاجتماعي، وإلى حيّز علم التاريخ الجديد الذي يجعل من "الذاكرة" أيضاً موضوعاً للتاريخ، أي للدرس والنقد، لا "لرواية الخبر"، فقط على طريقة الطبري الذي طبع التاريخ العربي العام بسمته الغالبة: سمة الإسناد إلى الراوي.

مذكرات شفيق الحوت التي غطت أزمنة "الرهانات الثلاثة" أو محطات الذاكرة العربية الثلاث، هي معطيات مهمة لمؤرخ قادر على أن يجمع بين حيّز دراسة الذاكرة والذهنيات والأفكار من جهة، وحيّز دراسة التاريخ الشامل في حتميات مساراته وفي انقطاعات مراحله و"مفاجآته" من جهة أُخرى. ■

صدر حديثاً عن مؤسسة الدراسات الفلسطينية

(قضايا استراتيجية ـ ١)

المشروع النووي الإيراني

الرؤية الإسرائيلية لأبعاده وأشكال مواجهته

إشراف وتحرير

أحمد خليفة

٨٩ صفحة ٥ دولارات